

تفسير البحر المحيط

@ 355 @ قلت : المعاقب مبعوث من جهة الله عز وجل على الإخلال بالعقاب ، والعفو عن الجاني على طريق التنزيه لا التحريم ومندوب إليه ومستوجب عند الله المدح إن آثر ما ندب إليه وسلك سبيل التنزيه ، فحين لم يؤثر ذلك وانتصر وعاقب ولم ينظر في قول { فَمَنْ عَفَا } وَأَمْضَلَجَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ { } وَأَنْ تَعْفُوا أَوْ قُرَبُ لِّلْمُتَّقِينَ { } وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ { } فإن { اللّٰهُ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ } أي لا يلومه على ترك ما بعثه عليه وهو ضامن لنصره في كرتة الثانية من إخلاله بالعفو وانتقامه من الباغي عليه ، ويجوز أن يضمن له النصر على الباغي فيعرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو ، ويلوح به ذكرها تين الصفتين أو دل بذكر العفو والمغفرة على نه قادر على العقوبة لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على حده ذلك ، أي ذلك النصر بسبب أنه قادر . .

ومن آيات قدرته البالغة أنه { يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ } و { النَّهَارَ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ } أو بسبب أنه خالق الليل والنهار ومصرفهما فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخير والشر والبغي والانتصار . وأنه { سَمِيعٌ } لما يقولون بِصَيْرٌ { بما يفعلون وتقدم في أوائل آل عمران شرح هذا الإيلاج . .

{ ذَالِكَ } أي ذلك الوصف بخلق الليل والنهار والإحاطة بما يجري فيهما وإدراك كل قول وفعل بسبب { إِنَّ اللَّهَ } { الْحَقُّ } الثابت الإلهية وأن كل ما يدعى إلهاً دونه باطل الدعوة ، وأنه لا شيء أعلى منه شأنًا وأكبر سلطانًا . وقرأ الجمهور { وَإِنْ مَّا بَفَتِحِ الْهَمزة . وقرأ الحسن بكسرهما . وقرأ الإخوان وأبو عمرو وحفص { يَدْعُونَ } بياء الغيبة هنا في لقمان . وقرأ باقي السبعة بتاء الخطاب وكلاهما الفعل فيه مبني للفاعل . وقرأ مجاهد واليماني وموسى الأسواري يدعو بالياء مبنيًا للمفعول والواو عائدة على ما على معناها و { مَا } الظاهر أنها أصنامهم . وقيل : الشياطين والأولى العموم في كل مدعو دون الله تعالى . .

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَخْضِبُ بِهِ الْأَرْضُ مَخْضَرَةً } إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ * وَإِنَّ لِلَّهِ لَهًوًا لَّهِوًا الْغَنَى * أَلَمْ تَرَ يَدْعُونَ * أَنْ لِلَّهِ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا . .

لما ذكر تعالى ما دل على قدرته الباهرة من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل وهما أمران مشاهدان مجيء الظلمة والنور ، ذكر أيضاً ما هو مشاهد من العالم العلوي والعالم السفلي ، وهو نزول المطر وإنبات الأرض وإنزال المطر واخضرار الأرض مرئيان ، ونسبة الإنزال إلى الله تعالى مدرك بالعقل . وقال أبو عبد الله الرازي : الماء وإن كان مرئياً إلا أن كون الله منزله من السماء غير مرئي إذا ثبت هذا وجب حمله على العلم ، لأن المقصود من تلك الرؤية إذا لم يقتصر بها العلم كانت كأنها لم تحصل . .

وقال الزمخشري : فإن قلت : هلا قيل فأصبحت ولم صرف إلى لفظ المضارع ؟ قلت : لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد مان . كما تقول أنعم عليّ فلان عام كذا ، فأروح وأغذو شاكرًا له . ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع . .

فإن قلت : فما باله رفع ولم ينصب جواباً للاستفهام ؟ قلت : لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض ، لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار مثاله أن تقول لصاحبك : ألم تر أنني أنعمت عليك فتشكر إن نصبت فأنت ناف لشكره شك تفريطه ، وإن رفعته فأنتم ثبت للشكر هذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله .

وقال ابن عطية : وقوله { فَتَنْصَبُ مِنَ الْأَرْضِ } بمنزلة قوله فتضحى أو تصير عبارة عن استعجالها أثر نزول الماء واستمرارها كذلك عادة ووقع قوله { فَتَنْصَبُ مِنَ الْأَرْضِ } من حيث الآية خبراً ، والفاء عاطفة وليست بجواب لأن كونها جواباً لقوله { أَلَمْ تَرَ } فاسد المعنى انتهى . ولم يبين هو ولا الزمخشري كيف يكون النصب نافياً للاخضرار ، ولا كون المعنى فاسداً . وقال سيبويه : وسألته يعني الخليل عن { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَخْضِبُ الْأَرْضُ مِنْهُ فَتُخْضَرُ بِهِ } فقال : هذا واجب وهو تنبيه . كأنك قلت : أسمع { أَنْزَلَ اللَّهَ مِنَ السَّمَاءِ * مَاءً } فكان كذا